مجلة المرابط

العدد : ١٨٤ الموافق في جمادى الثانية ١٤١٧ هجري ١١ / ١٩٩٦ ميلادي

عنوان المقال : عنوان الأمة عظماؤها	بقلم : بـــهاء الدين الأيوبي

دعاني الجيران في الحيّ للقاء ، وهم يبدون المودة ، ويُظهرون المحبة ، وما ذاك اللقاء إلا توكيداً للأخوة ، وتعميقاً للصلة وترسيخاً لمعاني حقوق الجار.

انعقد الجمع ، ودار الحديث ، وتنقل من مجال إلى مجال ، يقطف من جمال المعنى ، ويأخذ من حكم مجرى الأحداث ، فمن طُرف الأدب ينثني إلى عبر التاريخ ، ومن مواقف القادة يلتفّ إلى بطولة الرجال ، ثم ينعطف إلى حكمة العظماء. كل ذلك للتعمية عن الهدف ، وتغطية القصد من وراء ذلك اللقاء. فلما رأوا أن الطريق قد مهد ، وأن السبيل قد يُسِّر ، وأن الفكاهة قد أزالت كلَّ الظنون ، وأن الحكمة قد محت كل الشكوك ، قال قائلهم : ما رأيكم لو غير بهاء الدين اسم أسرته « الأيوبي ».

قلت : ما السبب ؟

قال : أما ترى - يا أخي - أن الدنيا قد تكالبت على أمتنا ، ووجهت سهامها على أعلامها ، ولعل الرجل الثاني الذي يحقدون عليه بعد رسول الله ﷺ هو صلاح الدين الأيوبي - رحمه الله - الذي حرر بيت المقدس من غاصبيها ، ثم وجّه ضربة إلى الأعداء فإذا بهم خارج ديار الإسلام ، ثم التفت إلى الدولة العبيدية الغريبة أيضاً فخنقها ، وأزالها ، وخلص الأمة من مكائدها.

ووالى أهل الكتاب بعضهم بعضاً ، وأجمعوا كيدهم ، وكتلوا قواهم ، وأتوا صفاً واحداً ، يريدون الإسلام وأهله ، جاؤوا تحت مسميات مختلفة ، وادعاءات متباينة ، وما لهم من هدف إلا نهب خيرات ديار الإسلام ، وإرواء غليلهم من أهله لما يحملونه من أحقاد. لذا فنحن أيها الأخ الكريم نخشى أن ينالك أذىً من الاسم الذي تحمله.

قلت إني لأفخر بهذا النسب ، لذا أتمسك به ، وأحافظ عليه ، وصلاح الدين الأيوبي رمز لهذه الأمة فهو أحد عظمائها ، وإن التنكر له ولأمثاله لهو بداية الهزيمة ، فما تخلت أمة عن قادتها ، وطوت صفحة عن أمجادها إلا بدأ الوهن ينخر فيها ، وأخذ الضعف ينتابها ، ثم يقوى عليها أعداؤها ، وتعطي زمامها لهم حلقة بعد حلقة. ومن هنا كانت الأمم تضع مناهج لأجيالها تحوي سلسلة أعلامها من قادة وعلماء وأبطال وعظماء ، ترفع بهم نفسها فوق غيرها ، وتعطي صورة للنشء ليسيروا على نهج سلفهم ، ويتبعوا طريقة أئمتهم فتعلو بهم الهمة فترتقي الأمة.

قال : أما ترى الهجوم قد بدأ على صلاح الدين الأيوبي - رحمه الله - من الداخل ، فانبرى أفراد

له يتهمونه ، وينالون منه.

قلت : إن الذين تكلموا عن صلاح الدين ممن يدعون الانتماء إلى الأمة قد طعنوا بمن هو خير من صلاح الدين بكثير ، طعنوا بأبي بكر ، وعمر ، وعثمان ، ﷺ ، طعنوا بتوجيه وجهل. بتوجيه من الأعداء لأن أبا بكر قد سير الجيوش إلى دولتي المجوس والنصارى ، وعمر أزال الأولى وأذل الثانية ، وعثمان حطم رؤوس من نقض العهد وأراد أن يشرئب بعنقه. ونتيجة جهل بظنهم أنهم يُؤيدون أحد إخوة أبي بكر ، وعمر ، وعثمان ، والواقع أنه ليس سوى تهديم.

والآن أخذوا يطعنون بصلاح الدين بتوجيه من الأعداء الذين حرّر القدس منهم ، وأذلهم ، ومرغ وجوه قادتهم بالتراب ، وجهلاً بظنهم أن الدولة العبيدية تمثل فكراً يرجع إلى أصلٍ ، والواقع ليست سوى دولة غريبة أصلاً ومعتقداً تعود إلى من طردهم رسول الله ﷺ من المدينة ، وأخرجهم عمر من الحجاز[1]. فهم يعودون في أصولهم إلى ميمون القداح بن ديصان ، وترجع عقيدتهم إلى عقيدته ، فرأسهم عبيد الله بن الحسين بن أحمد بن عبد الله بن ميمون بن ديصان[2] ، وإن حاولوا التعمية على هذا بالأزهر الذي أقاموه ، والادعاءات التي تكلموا بها. إن كثيراً من الأسماء والمسميات ذات دلالة عظيمة ، غير أن بعضها قد يكون فارغ المعنى ، بل قد يحمل سلبيات بالنسبة إلى مدلوله. ومن يبغي التعمية على شيء يُبدي شدة التمسك بما يريد أن يظهره. فمن يكن على عقيدة ويريد إظهار غيرها تراه يعلن التمسك بما يرغب في إظهاره ، ويكرر ، ويتشدق بلسانه وأقواله ، ولكن أعماله وتصرفاته ، وأفعاله وارتباطاته ، وولاءه وصداقاته تنبىء عمّا يكن في صدره ، وفي الأيام المعاصرة صور واضحة ذات ألوان فاقعة وأفعال صارخة.

ليس العمران كالإيمان ، فأحجار ترفع وأسوار تنصب يراد بها دعاية ، وإخفاء حقيقة ليست كالإيمان الذي يعمر القلوب ويملأ الصدور : { **أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله لا يستوون عند الله والله لا يهدي القوم الظالمين** } [التوبة:١٩]. فبناء الأزهر ليس سوى دعاية لإخفاء حقيقة.

إن السهام الأولى للأعداء إنما تُوجه إلى هدفين أساسيين هما : لغة الأمة ، وعظماؤها في التاريخ ؛ فإذا أصيب الهدفان إصابة خارقة أصاب الوهن الأمة ، وضعفت مفاصلها ، فإن سهام الأعداء تصوب إلى أهداف أكثر حيوية حتى تركع ، وعندها يفعل الجزار ما يحلو له.

فأنا أعتز بنسبي ، وأفخر بالمحافظة عليه ، وأرجو البقاء على ذلك ، ولا أتهرب من رجل يعد

رمزاً من رموز الأمة ، وإن تكالبت الدنيا علينا ، وكثر عبيدها ، والتحق المنافقون بهم ، وزاد الأجراءُ الذين يهدمون نيابة عن الأعداء.

هذا ما أريد أن أقوله ، وجزى الله المخلصين خيراً ، وشكراً لكم على رفقكم بي ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته. وتركت المجلس وخرجت ألتمس مجلساً آخر يضم أفراداً يدركون واقعهم ، ويتحسسون أهداف أعدائهم ومخططاتهم.

الهوامش :

(١) الكامل / ابن الأثير ، حوادث ٢٩٧ هـ

(٢) القرامطة / محمود شاكر ، ص ٦٣